

(١٢)

الحوار "المستحيل"
بين حضارات "الشرق"
وامبراطورية "الشر الأبيض" (*)



(*) دراسة نشرت على ثلاث حلقات بجريدة "البيان" اليومية الإماراتية التي تصدر عن إمارة دبي - يناير ١٩٩٣م.

الحوار "المستحيل" بين حضارات "الشرق" وامبراطورية "الشر الأبيض"

[١]

♦ المدنية الغربية وأسباب تفوقها :

ليس من شك أن الحضارة الغربية تمثل اليوم الحضارة السائدة في العالم. والحق أن سيادتها ليس نتيجة قوة ثقافتها أو عظمة تراثها الفكرى أو العلمى بقدر ما هو نتيجة لتفوقها التكنولوجى والعسكرى؛ فقد أعطتها التكنولوجيا المتفوقة القدرة على غزو الشرق غزوا إعلاميا مكتفا عن طريق كل وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية. مما جعل الثقافة الغربية تخرق كل الثقافات الأخرى على أنها الثقافة الأكثر تقدما، فأصبح النموذج الثقافى الغربى بكل ما يحمله من قيم هشة وعادات مردولة وسياسات عقيمة أساسها العنصرية والمصلحة، أصبح هذا النموذج هو السائد بين منقضى العالم فاعتربوا عن ثقافتهم وتناسوا عناصر تميزهم وتغافلوا عن دراسة واقعهم وقيمهم وأصبحوا تابعين لا مبدعين، سلبيين لا إيجابيين، منفعلين لا فاعلين!!.

أما قوتها العسكرية بقدراتها المتفوقة وتتنوع أسلحة الدمار الشامل فيها، فقد مكنتها من فرض السيطرة، والتحكم فى مصير شعوب وحكومات العالم الشرقى، وقد تطورت صورة هذا التحكم العسكرى أخيراً حينما انتقل من صورة التلويح والتهديد إلى صورة العن والتبجح منذ أعلنت أمريكا رأس العالم الغربى ووزاعه القوية أن بإمكانها التدخل العسكرى فى أى مكان فى العالم لفرض إرادتها تحت مظلة ما يسمى بهيئة الأمم المتحدة التى هو فى الواقع هيئة للولايات المتحدة وحليفاتها الغربيات!، وقد حدث هذا التدخل العسكرى لمصالح معروفة فى حرب الخليج الأخيرة، وما هو يحدث الآن فى الصومال ومنطقة القرن الأفريقى، وإن لم يحدث فى أماكن كثيرة أخرى مثل اليوسنة والهرسك لتعارضه مع المصالح الأمريكية - الغربية بالطبع!!.

إن القوة العسكرية والتكنولوجية وتفوقها فى الغرب هى التى تفرض العدل بحسب ميزان المصالح الغربية وحدها ودون أى اعتبار لمصالح باقى البشر فى العالم. إن ما نتغنى به أمريكا ودول الغرب عن العمل بمقتضى المصالح الإنسانية العالمية فى إطار ما يسمونه بالنظام العالمى الجديد إنما هو محض تمويه ومحض خرافة. وذلك لسبب بسيط هو أن القوة العسكرية والتقدم التكنولوجى لا يمكن بأى حال أن يكونا أداة لإبداع نظام عالمى جديد تحترم فيه إنسانية الإنسان.

إن إدراكنا لأسباب التفوق الغربى المتمثلة فى التفوق التكنولوجى والعسكرى وحدهما يعنى ضرورة أن ندرك حقيقة أخرى

هي أننا في صراعنا مع الغرب لسنا في صراع مع حضارة سائدة بمقومات حضارية حقيقية مثل التقدم الأخلاقي والديني والاجتماعي والفكري والسياسي والعلمي والأدبي.. الخ، بل بمقومات مادية تكنولوجية تسيطر بالبشرية إلى الفناء ولا تتجه بها إلى التعمير والبناء. وذلك يعني ببساطة أننا أمام مدنية متحكمة ولسنا أمام حضارة متفوقة.

ولعل القارئ الآن يسأل: ما سبب هذا الحديث عن التمييز بين الحضارة والمدنية؟!، وما ضرورة هذا الكلام عن التمييز بين الحضارة بمقوماتها الإبداعية القادرة على البناء الإيجابي في شتى الميادين، وبين المدنية بمقوماتها الاستهلاكية المادية التي تجرنا إلى الضياع والفناء؟!.

♦ جارودي وكتابه "حوار الحضارات" :

إن ما أثار هذا في الذهن إنما هو قراءة كتاب "حوار الحضارات" للمفكر الفرنسي الكبير روجيه جارودي، الذي كان من قبل ماركسيا مسيحيا وأصبح الآن مسلما معروفا. لقد كتب جارودي هذا الكتاب التتويري الهام قبل إسلامه بمدة طويلة وقد أثار فيه العديد من القضايا الهامة والمثيرة، وكان أبرز هذه القضايا هي قضية الحوار بين الحضارات التي يشير إليها عنوان كتابه، وهي قضية القضايا في فكر جارودي الفلسفي منذ مدة طويلة. وسيجد القارئ أن حوارنا مع أفكاره حول هذه القضية سيكون من منظور ما طرحناه في مقدمة حديثنا.

إن قضية علاقة الغرب بالحضارات الأخرى هي لب مسألة الحوار الحضارى الذى يدعو إليه جارودى، ومن ثم كان عليه دراسة الحضارات الأخرى وما يمكن أن تقدمه للحضارة الغربية أو ما يمكن أن يستفيدة منها الغرب. وقد تمخض عن هذه الدراسة لدى مفكرنا عدة فناعات عبر عنها فى كتابه الذى بين أيدينا بوضوح تام. وكان أهم هذه الفناعات:

♦ الغرب عرض طارئ:

أولاً : أن الغرب عرض طارئ فى تاريخ البشرية الطويل. وقد صور مفكرنا دور الغرب فى هذا التاريخ الطويل للبشرية بعبارة "الشر الأبيض" وقد أحسن صنعا بهذا التصوير، لأن معظم الآلام والأحزان والأهوال التى عانى منها البشر قد جاءت على يد الغربيين فى فترات سيادتهم على العالم سواء فى العصور القديمة أو فى العصر الحديث؛ فقديمًا حينما تعاضمت قوة الغرب اليونانى ثم الرومانى، وفرض سيطرته على العالم منذ غزوات الاسكندر الأكبر ثم اقتسام قواده لامبراطوريته من بعده، وما أعقب ذلك من ظهور الإمبراطورية الرومانية فى التاريخ شهد العالم الكثير من ألوان التزييف والخلط الفكرى، كما عانى الناس أشد ألوان العذاب والأهوال. وكلنا يذكر قصص أولئك الأباطرة الرومان الذين كانت معتهم الكبرى تتمثل فى رؤية البشر وهم يتقاتلون ويقتلون ليس فى ميدان الحروب فقط، وإنما فى حلبات المصارعة إما بيد بعضهم

البعض أو فى صراعهم مع الحيوانات المفترسة، فكلنا يذكر على سبيل المثال مفاسد نيرون وطغيانه واحراقه لعاصمة بلاده روما، وقتله لكل من تسول له نفسه الخروج عليه أو مخالفته فى الرأى حتى أنه أمر بإعدام سينكا الفيلسوف والأديب الرواقى الشهير وهو أستاذه ومربيه بقطع شرايينه.

أما فى العصر الحديث، فكلنا يذكر ويعلم كيف تعاضمت قوة أوروبا والغرب باستعمارها بلاد الشرق والاستيلاء على ثرواتها واستعباد أهلها وكلنا يعلم كيف قامت أمريكا على اكتاف أولئك العبيد المستجلبين من بلاد الشرق وخاصة من افريقيا السوداء، وكيف أقام مهاجرو أوروبا هذه الامبراطورية الجديدة (أمريكا) عبر استيلائهم على أراضى المستوطنين الأصليين من الهنود الحمر وإبادتهم بإداة جماعية!! ولا تزال ذكرى الحرب العالمية الأولى والثانية ماثلة للعيان نشاهد تاريخ مأسيتها عبر شاشات التليفزيون، ونعلم كيف استعرت هذه الحروب المدمرة بين الغربيين من جراء الصراع والتنافس فيما بينهم وإحياء القوميات العرقية العنصرية ومحاولة كل منها السيطرة على الآخرين. لقد مات الملايين منهم فى هذه الحروب، وها هم الباقون يحيون على الذكريات الأليمة والميراث المأساوى الذى يحاولون تصديره الآن وبصور مختلفة إلى الآخرين، إلى ما يسمونه حسب تصنيفاتهم العنصرية البغيضة "العالم الثالث".
حقاً إنها "امبراطورية الشر الأبيض"!!.

• وهم المعجزة الغربية:

ثانياً: أما ثانی قناعات جارودی فيتمثل في إدراكه أن تصوير الغرب على أنه "بدء مطلق" — أي على أنه قد صنع حضارته بنفسه وأنه صانع الحضارة الإنسانية في كل العصور — إنما هو "وهم".

وقد برهن مفكرنا على قناعته هذه بنجاح تام حينما أكد "أن ما اصطاح الباحثون على تسميته باسم "الغرب" إنما ولد فيما بين النهرين وفي مصر أي في آسيا وأفريقيا^(١)". وكما أن الغرب القديم (أي اليونان) قد ولد في أحضان حضارات الشرق القديم ونما من شربه لرحيق فكرها وعلومها المتقدمة، فإن الغرب الحديث قد ولد عبر نقل نهضة شاملة صنعها العرب والصينيون في العصر الوسيط (وهو اصطلاح يعبر عن التقسيم الغربي للتاريخ بوصفه مركزاً له) إذن فلم يبق عصر النهضة "معجزة"، كما لم تبق ثمة "معجزة يونانية"^(٢).

وقد أفاض جارودي في البرهنة على رفض المعجزة الغربية في العصر الحديث وأكد على "إن شرط "تمو" الغرب إنما كان بالضرورة وليد نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوروبا وأمريكا الشمالية^(٣)". وأن "مولد الجشع في الغرب وهو يستند إلى أساس الربح والسيطرة قد أتاح الإفادة على سلم لم يسبق له مثيل في الماضي من الاختراعات التي أخذتها أوروبا من ناحية ثانية عن الصينيين وعن العرب: بحرية تنفيذ من أجهزة دفة السفينة ومن

البوصلة، وهي تيسر إمكان الملاحة البحرية إلى مسافات طويلة، وكذلك استخدام البارود والأسلحة النارية بوجه خاص^(٤). وعلى ذلك فإن التفوق الأوربي لا يرجع إلى تفوق تقاقي، بل إلى النفع الذي منحته أوربا من قطاعين: البحرية والأسلحة^(٥)، وقد نقلتهما أوربا من العرب والصينيين.

ولقد تحلى جارودي بشجاعة عظيمة حينما كتب في مؤلفه هذا ولأول مرة في تاريخ الكتابات الغربية بوضوح شديد "إنما يدين الغرب بعصر النهضة للـ "غزو" العربي الذي عرف كيف يخلق الشروط اللازمة لتفتحه"^(٦). ولاحظ وضع جارودي لكلمة الغزو بين أقواس؛ فهو لا ينظر إلى ما حدث من دخول العرب أوربا على أنه "غزو" بل على أنه كان فتحاً عظيماً أفادت منه أوربا بأكثر مما أفادت العرب، وهو يرد على من يسمونه غزواً بقوله: "إن ما يطلقون عليه اسم "غزو أسبانيا" لم يكن غزواً عسكرياً؛ لقد كان عدد سكان أسبانيا في ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة ولم يزد عدد الفرسان العرب في الأرض الأسبانية البتة على سبعين ألفاً وإنما لعب التفوق الحضاري دوراً حاسماً"^(٧).

♦ التفوق الحضاري للعرب ونقل الغرب عنهم:

ولقد أفاض جارودي في بيان التفوق الحضاري العربي وعرض بشيء من التفصيل لإسهامات العرب والمسلمين الحضارية،

وقارن بينهم وبين الأوربيين فى ذلك الوقت، حيث أوضح أنه فى الوقت الذى لم تكن فيه أوربا قادرة فى مستهل القرن التاسع على معرفة القراءة. كان الخليفة المأمون يفتح فى بغداد بمساعدة جيش من المؤلفين والمترجمين مكتبة ضخمة هى "دار الحكمة". وكان "الحاكم" وهو أحد الخلفاء الأمويين يمتلك فى قرطبة مكتبة تحتوى على أكثر من مائة ألف مجلد، بينما لم تضم مكتبة شارل الخامس ملك فرنسا الملقب بالحكيم - أى العالم - إلا ألف كتاب بعد أربعة قرون^(٨). كما أوضح أن العرب "قد سعوا وهم بينون امبراطورية تجارية كبرى إلى التقنيات والعلوم التى قفزت قفزة كبرى إلى الإمام بتأثيرهم"^(٩). كما كشف النقاب عن أن الجغرافيين والفلكيين العرب الذين كلفوا برسم الخرائط الضرورية لإدارة امبراطوريتهم قد أخذوا بعين الاعتبار كروية الأرض فى الوقت الذى كانت الكنيسة المسيحية تتكرها. كما أقر جارودى منجزات العرب البحرية وكشف زيف التاريخ الغربى فى هذا الصدد بقوله: "ولئن أذهلت ريادات ماركو بولو الغرب، فإن من الثابت أن مؤلفاً عربياً تحدث سنة ٨٢١م أى قبل ماركو بولو بأربعمائة وخمسة وعشرين سنة عن رحلة إلى الصين وصل خلالها إلى سدود كانتون بل بلغ بلا ريب كوريا واليابان. وقد وضع مسلم يسمى أحمد بن ماجد فى الوقت ذاته تقريبا كتابا عن الملاحة البحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى وبحر الصين. وسيفيد البرتغاليون منه باعتباره أساس

دراساتهم البحرية في عهد هنرى الملاح الذى يمثل بالنسبة إلينا نحن الأوربيين قمة فن الملاحة^(١٠).

وقد تحدث جارودى أيضا عن منجزات العرب العلمية ومكتشفاتهم فى كل حقول المعرفة من الحساب والرياضيات إلى الكيمياء والطب، وكذلك العلوم الإنسانية التى أشاد فيها بريادة ابن خلدون فى اكتشاف المفهوم العلمى لعلمى الاجتماع والتاريخ وسبقه لمكيا فيلى فى طرح مشكلات موقف الإنسان من السياسة والتاريخ. وأشار إلى سبق ابن خلدون فى اكتشاف نظريات فائض القيمة بالاستناد إلى العمل قبل الاقتصاديين الأوربيين الذين لم يستطيعوا — على حد تعبيره — الانعتاق من النظريات التجارية فى القرن الثامن عشر^(١١).

♦ المخترعات الصينية ونهضة الغرب:

وقد أشاد جارودى كذلك بما قدمه الصينيون من علوم ومخترعات ساعدت كثيراً فى التقدم والتطور الإنسانى، وأشار فى هذا الصدد إلى اختراعهم "المطبعة التى لعبت دورا حاسما فى انتشار عصر النهضة والاصلاح والرأسمالية"^(١٢). كما أشار إلى استخدامهم للثروة المعدنية واستخراجها من الأرض بينما لم تعرف الصناعة الأوربية استخراج الصلب إلا حوالى ١٣٨٠م^(١٣) كما أوضح مدى تقدمهم فى ميادين استخدام قوة البحار والرياح، وأشار بعظمة

الأسطول الصينى الذى كان أقوى أساطيل العالم بين أعوام ١١٠٠ و ١٤٥٠ م. وكذلك أشار إلى استخدامهم القوة الحيوانية فى التنمية، وإلى اختراعهم لبارود المدافع فى القرن التاسع الميلادى، وإلى كشف علماء الصين فى مجال التغذية وعلم الحشرات وحماية النباتات ودراسة النبض وتقنيات وخز الإبر التى تتم عن علم بالتشريح متعمق جداً^(١٤).

وبالطبع فلم يكن غربيا فى إطار تلك الأمثلة التى هى مجرد جزء ضئيل من اسهامات العرب والصينيين فيما قبل عصر النهضة الأوروبية، أن يرد جارودى عصر النهضة الغربى إلى ما نقلته أوروبا من منجزات الشرقيين من عرب وصينيين وغيرهم. بل إن الغرب والمدهش حقا هو ذلك التجاهل الذى ظل مسيطرا على كتابات المؤرخين العلميين الغربيين لتلك الانجازات والاسهامات الشرقية فى تاريخ العلم والتكنولوجيا طوال القرون السابقة. إنه باستثناء العلامة جورج سارتون فى كتابه الشهير "تاريخ العلم"، فقد درج المؤرخ الغربى دائما على أن يصور للناس أن تاريخ العلم هو تاريخ غربى محض، وأن الغرب هو صانع ومبدع كل المكتشفات السابق الإشارة إليها. وأن الغربيين لم يتأثروا بأحد ولم يأخذوا شيئا من أحد، وأنهم صانعو التقدم فى كل عصور التاريخ الذى يبدأ منهم (أى من اليونان القديمة)، وينتهى إليهم (أى إلى سيادة أوروبا وأمريكا)!!

ويواصل جارودي تقديم قناعاته في كتابه "حوار الحضارات" حول الحضارة الغربية بتحليل ما آل إليه حالها بعد كل التقدم الذي ظنت أنها أحرزته في القرون السابقة.

♦ التطور الصناعي في الغرب والتأهل للانتحار الحضارى :

ثالثاً : إن ثالث هذه القناعات يتعلّق بنمط التطور الذي تمارسه الحضارة الغربية في مجال التقدم الصناعي، إن ذلك النمط في نظر مفكرنا إنما يقود البشرية إلى طريق مسدود. ويعبر عن هذه القناعة بقوله: "إن حضارة تقوم على هذه الموضوعات الثلاث: تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك - تحيل الفكر إلى ذكاء - تحيل اللانهائى إلى الكم، إنما هي حضارة مؤهلة للانتحار^(١)".

ويفسر جارودي أسباب هذا التأهل للانتحار بقوله: "إنه انتحار لفقدان الهدف ويشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات وانتحار المراهقين بأعداد أكبر في الأصقاع الأغنى "وهو" انتحار لإفراط الوسائل ويبرهن على ذلك النضوب المتنامى للمصادر الطبيعية والتلوث وذلك نتيجة ضرورية لتصور لا يرى في الطبيعة شيئاً آخر سوى أنها مستودع ومعمل لمعالجة القمامة"، وهو انتحار بسبب "الرجحان السئ لمقولة التتمية اللانهائية الكم" إذ أنه باسم هذه

المقولة "تعمل مجتمعاتنا - يقصد المجتمعات الغربية طبعاً - كما لو أن كل ما هو ممكن تقنياً أمر مرغوب فيه وضروري سواء أكان ذلك فى صنع أسلحة نووية أكثر قوة باطراد أم صنع سيارات أو طائرات أكثر سرعة باطراد حتى ولو لم يستهدف الذهاب إلى أى مكان، أم إطالة الحياة أكبر قدر يستطيع حتى ولو كانت حياة نباتية خالصة تجعل المحتضر موضوع عرض علاجي مسرحي وضحيته.. إن مجتمعاتنا المسماة "متطورة" تعمل تبع المبدأ الذى كان فيما سلف مبدأ المغالطين: خلق حاجات ورغبات تتصف بأنها مصنعة إلى أبعد مدى، ومؤذية أعظم الإيذاء من أجل اللجوء من ثم لإنتاج وسائل إروائها^(٢)".

إن ما تدعوه "مجتمعاتنا الغربية الحالية نمواً أو تطوراً إنما يعرف بمعايير وحيدة الجانب معايير اقتصادية: الازدياد الكمي فى الإنتاج وفى الاستهلاك دون الرجوع إلى مشروع إنسانى أو إلى صفة الحياة ونحن إنما نقاين اليوم ونصنف تسلسل المجتمعات والشعوب بهذه المعايير التى تعتمد على الناتج القومى الخام^(٣)".

إن المتأمل للفقرات السابقة التى عبر فيها جارودى عن قناعته بأن التطور الصناعى ونمط النمو الذى تقيس به المدنية الغربية ذلك، إنما يؤدى بالحضارة الغربية إلى الانتحار ويقود البشرية معها إلى طريق مسدود. إن تلك الفقرات هى أصدق ما فى كتاب

جارودى وهى تكشف عن وعى عميق بأزمة ما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة والتي أصر من جانبى على تسميتها بالمدنية الغربية. لقد بلور مفكرنا هذه الأزمة حينما وعى واكتشف أن معيار القياس فى "الغرب" هو معيار الكم الربحى أى المعيار الاقتصادى المادى الذى لا يعنيه الإنسان فى ذاته ولا يشير ولا يأخذ فى الاعتبار حياته الاجتماعية، أخلاقه ودينه وصحته النفسية وانفعالاته.

إن قياس التقدم بالمعيار الكمى وحده هو الذى أفقد تلك الحضارة - التى كانت كذلك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر - قوامها الحضارى وحولها إلى مدنية بلهاء لا ترى فى الإنسان شيئاً سوى عمله المادى ونتاج هذا العمل المادى من ثروات ومخترعات تسهل له الحياة وهى فى الواقع تدمرها، وتحول مبدعها إلى موجود هامشى لا قيمة له ولا فاعلية.

لقد أصبح الإنسان الغربى - ونحن معه نسير على نفس الدرب - شيئاً ككل الأشياء، أصبح شيئاً غير مبدع، مات فيه الخيال وانعدمت الرؤية الشاملة، فقد أحاسيس الرؤية الواضحة، والقيمة الأخلاقية الرفيعة، ماتت فيه العاطفة الأخوية والأسرية والاجتماعية. لقد فقد الإنسان الغربى المعاصر القدرة على التفكير المجرد الشامل المتجاوز للواقع المادى، وماتت فيه القدرة على حب الطبيعة البكر، والتأمل فى آفاق الكون الرحب والالتحام بكل ما فيه بالحب والعطاء،

وليس بالنظر إلى كل ما فيه نظرة الأداة، نظرة السلب والنهب. إن ثورات الطبيعة الآن وفي كل مكان خير شاهد على ما فعله الإنسان فيها وتحديه إياها. إن ما نراه في كل أنحاء العالم الآن من زلازل وبراكين - كانت خامدة منذ قرون وعادت تهز الأرض وتقذف إلينا بحمها - إنما هي خير رد من الطبيعة على ما يمارسه الإنسان الغربي ونحن معه من سلوك همجي تجاهها بدون وعي.

لشد ما ينبغي أن يتذكر الإنسان الغربي المعاصر كلمات الفيلسوف الرواقى القديم عن ضرورة التأخى مع الطبيعة والإنصات إليها واحترامها بنفس القدر الذى على البشر أن يتأخوا به فيما بينهم وأن يحترم كل منهم الآخر ويقدر دوره فى الحياة.

ولشد ما ينبغي أن يتذكر الإنسان الغربي المعاصر كلمات الفيلسوف الفرنسى العظيم جان جاك روسو الذى دق ناقوس الخطر منذ القرن الثامن عشر فى بحثه غريب العنوان عظيم المضمون "هل ساهم إنشاء العلوم والفنون فى تهذيب الأخلاق؟"؛ فقد قال فيه: "إنه بقدر ما كانت علومنا وفنوننا تتقدم نحو الكمال بقدر ما كانت أخلاقنا تقسد ونفوسنا تتعفن... إن البذخ هذا الشر الكبير نادرا ما يسير بدون العلوم والفنون وهذه لا تسير مطلقا بدونها"⁽⁴⁾، وبالطبع فلم يكن قصد روسو من هذا البحث هو وقف تطور العلوم أو هدمها، وإنما كان يقصد إلى التنبية إلى أن النمو المتالى للحاجات البشرية كان شرا وأن تكاثرها الذى لم يكن ضروريا كان تهورا كبيرا من قبل البشر⁽⁵⁾.

♦ الحضارة الغربية وضرورة الحوار مع الحضارات الأخرى :

رابعاً: أما رابع قناعات جارودى فهي قناعته بضرورة الحوار بين الحضارات فى العصر الراهن حتى يمكن للحضارة الغربية أن تتجاوز أزمته وكذلك حتى يمكن للعالم المسمى بالعالم الثالث أن يتجاوز وضعه الراهن. وقد تأكدت قناعته هذه من قناعاته السابقة التى كان جوهرها إيمانه بأن "الغرب حادث عارض. وأنه أخطر عارض طرأ فى تاريخ الكرة الأرضية والذي يقود اليوم إلى فئائها"^(٦)، وأن نجاه الغرب من هذا الفناء المحقق لا يمكن تجاوزه إلا بالقضاء "على التصور التسلطى فى الثقافة الغربية" وأن "يستعاض عنه بتصوير سيمفونى" يتطلع فيه الغرب بأسئلته وبحلول لمشكلاته إلى حكمه "العالم اللاغربى"، وليس من سبيل إلى ذلك إلا "بالانخراط فى حوار حقيقى مع الثقافات غير الغربية"^(٧).

♦ الفرص الضائعة للحوار بين الغرب والحضارة العربية الإسلامية:

لقد كان هذا الحوار المنشود بين الغرب والحضارات الأخرى ممكناً فى مراحل سابقة من العصر الحديث لكن الغربيين أضاعوا فرصاً كثيرة لهذا الحوار. وكان أبرز هذه الفرص الضائعة فرصة الحوار مع الحضارة الإسلامية التى كانت بالفعل تمد جسور هذا الحوار بما أقامته من صروح حضارية فى أوروبا إبان عصر النهضة. وقد صور جارودى قوة تأثير هذا الجسر الحضارى بقوله:

"إن ما حققه العرب في أسبانيا، يجعلنا نفكر في الحرب الثورية التي نهض بها ماو (يقصد ما فعله ماوتسى تونج في الثورة الصينية وبناء الصين الجديدة)؛ فقد جلبوا معهم نظاما اجتماعيا أعلى جدا من النظام الراهن، وسرعان ما ظهوروا بمظهر محررين: أولا بانقاذهم الأفتان من وصاية ملوك (الفيزغوط) في عصر انحطاطهم ثم بعدم امتلاكهم الأرض - والقرآن يمنع ذلك - ولكن الاكتفاء بالخراج. لقد أقام العرب في بلد تمزقه الفوضى الإقطاعية أجمل منشآت الرى التي عرفها العصر، ولا يزال المتحدثون يلهجون إلى اليوم بالكلام على حدايق مرسى حديثهم عن حلم^(٨)."

"إن الحضارة التي أقامها العرب في أوربا كانت حضارة نشر العلم"، "نحن ندين للعلم العربي بكليات الطب الفرنسية الأساسية" وقد ظلت كتب الطب العربية مثل كتب الرازى الشهيرة تنشر وتدرس حتى القرن السادس عشر في فرنسا وحتى منتصف القرن التاسع عشر في إنجلترا "وقد توصل عمر الخيام إلى حل معادلات الدرجة الثالثة باستخدام نفس الطريقة التي استخدمها نيكرات بعد خمسة قرون وبذلك وضع أسس الهندسة التحليلية، وقد ظل كتاب الجبر الكبير الذى ألفه الخيام وترجمه إلى الفرنسية مرجعا معتمدا حتى سنة ١٨٥٧م^(٩)."

إن جارودى يحاول في الفقرات السابقة أن يعدد بعض ما قدمه العرب للغربيين من علوم كانت هى أساس نهضتهم، وهو

يستشهد في هذا الصدد بما نشره الكاتب الفرنسي الكبير أناتول فرانس في "الحياة الجميلة" حيث: "سأل السيد دوبوا السيدة نوزير عن أشأم يوم في تاريخ فرنسا، ولكن السيدة نوزير لم تكن تعرف. فقال السيد دوبوا: إنه يوم معركة بواتيه عندما تراجع العلم العربي والفن العربي والحضارة العربية سنة ٧٣٢ أمام همجية الفرنجة^(١٠)".

ويعلق جارودي على هذا النص الذي نقله قائلاً: بأن الكشف عنه كان سبباً في طرده من تونس سنة ١٩٤٥م بذريعة الدعاية المضادة لفرنسا^(١١)".

ولقد أعفانا جارودي بتعليقه هذا من التعليق؛ فقد أوضح بصورة جلية أن الغربيين لا يقبلون الاعتراف بفضل أحد عليهم، فهم لم ولن يعترفوا بالحقائق التي أدركها هو والبعض ممن يعدون استثناءات قليلة في تاريخ الفكر الغربي الحديث والمعاصر.

إن مفكرنا يحاول في الصفحات التالية من كتابه الذي بين أيدينا، تصحيح بعض المفاهيم التي رسخت في ذهن الإنسان الغربي عن وجود العرب في أوروبا وما كان يمكن أن يحققه الغربيون من مكاسب عظيمة لو حافظوا على هذا الوجود الحضاري العربي واستفادوا منه بدلاً من إمانته في ذاكرتهم ونسبة انجرافه زيفاً إلى أجدادهم من اليونانيين. لقد قيل من جانب الغربيين في دنت الوقت من عام ١٩٤٥ وأثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر وغيرها من

البلدان العربية الإسلامية "إن العلم العربي الذي بلى ومات ميتة لا رجعة لها إنما قام على اقتباسات من مؤلفات يونانيين اختارها يهود في العصور الوسطى"^(١٢)!!.

ويحاول جارودي تصحيح هذا الفهم الخاطئ بقوله متسائلاً:
"لماذا هب هذا الإعصار القادم من الشرق وانتشر بمثل هذه السرعة العظمى من بحر الصين إلى المحيط الأطلسي؟ إن العامل الحاسم هو أن العربي قد جلب معه أشكالاً أعلى في مجال التنظيم الاجتماعي وحتى الاقتصادى. ولذا نجده يحظى بقبول الجماهير في عالم يقر نظام الرق وهو في حالة تفسخ تام"^(١٣).

إن هذه المحاولة التصحيحية التى يقوم بها مفكرنا إنما هى جزء من كل يستهدف من وجهة نظره "ضرورة وضع التاريخ كله فى أفق رؤية لا تشوهها أحكام الغرب المسبقة، رؤية تفلح عن اتخاذ النظرة الأوربية مركزها"^(١٤).

وبالطبع فإن هذه شجاعة عظيمة من جارودي حينما يقف فى مواجهة حقيقة كثيراً ما غابت عن وعى معظم المتقنين والكتاب فى العالم الغربى، وهى أن تاريخ الإنسانية قد شوته هذه النظرة الأحادية الغربية التى يحاول دحضها والتقليل من سيطرتها على الوعى الغربى. وأكاد أفق معه فى خندق واحد لأدعو معظم المتقنين بل والمفكرين العرب أيضاً إلى إدراك هذه الحقيقة بعد أن تشوه

وعيهم بما ينقلونه من فتات هذه النظرة الغربية العنصرية المحدودة إلى تاريخ الحضارات وفلسفاتها وعلومها. إنها دعوة إلى أن يقلل هؤلاء من تفاعلهم مع هذه النظرة الغربية والتأثر بها، دعوة إلى رفض هذه النظرية التي تعتبر أن الغرب هو مركز كل شيء وصانع كل شيء، إننى أنادى هؤلاء بأن يتعلموا الشك فى كل الروى الغربية العنصرية، وأن يثابروا ويصبروا حتى يكتشفوا كنه الحقيقة بالعودة إلى غير المؤلف من كتب تراثنا الشرقى القديم وتراثنا الإسلامى، دعوة إلى أن ينظروا فى المصادر غير المؤلف من كتب الرحالة والمؤرخين غير الرسميين، إلى الوثائق غير الشائعة، تلك الوثائق المخفية عن أعيننا بفعل الاستعمار الغربى سواء حينما كان بصورته السافرة فيما مضى أو فى صورته الخفية غير السافرة الآن.

♦ الفرص الضائعة للحوار مع الحضارتين الصينية والهندية:

ولنعود إلى جارودى وشجاعته فى إبراز تلك الفرص المفقودة التى أضعها الغربيون وكان من الممكن أن يستفيدوا منها فى الحوار مع الحضارات الأخرى، ومنها فرصة الحوار مع الحضارة الصينية التى تحدثنا عنها فيما سبق، وفرصة الحوار مع الحضارة الهندية التى أذهل جارودى فيها بوجه خاص ما تملكه من رؤية مختلفة للعالم ولحقيقة الوجود. وقد ضرب عدة أمثلة على مضمون تلك الرؤية من التراث الهندى القديم والمعاصر، ولعل من أبرز الأمثلة

ما ذكره عن الزعيم الهندي الشهير المهاتما غاندى الذى قاوم الاستعمار الإنجليزى الغربى لبلاده من منظوره الحضارى الهندي المميز. لقد قال غاندى موضحا فلسفته الحضارية: "قد لا تقوم الحضارة على مضاعفة الحاجات وإكثارها، بل على العكس تقوم على تقليصها بإرادة ووعى" إن إرادة خلق عدد غير محدود من الحاجات من أجل العمل على تلبيتها فيما بعد ليس سوى تتبّع ربح "وأنا لا أضع أى حد دقيق يفصل الاقتصاد عن الأخلاق لشدة ما قمت بهذا التمييز"^(١٥).

وبالطبع فإن هذه الروح الحضارية المتميزة إنما هى روح الحضارات الشرقية جميعا وقد استقاها غاندى من التراث الفكرى الهندي بتاريخه الطويل وقوته الروحية الهائلة.

لقد حدد جارودى هدفه من تعديد هذه الفرص الضائعة للحوار بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى فى الماضى القريب والبعيد. إنها محاولة منه لإعادة الحضارة الغربية إلى مكانها الصحيح فى تاريخ البشرية، فهى لا تشكل سوى الجزء الأكثر ضآلة وسطحية من تراث طويل عريق وعظيم.

إن الهدف من تلك الاستشهادات بإنجازات الحضارات الأخرى فى نظره "ليس القيام بما يقوم به المؤرخ أو عالم الآثار من بعث الماضى الغابر، ولا القيام بما يقوم به هاوى المعرفة الأجنبية،

بل إن كل شيء هنا يتجه شطر المستقبل، شطر اختراع المستقبل. ونحن لانستطيع إرجاع مشروع الإنسانية الروحي إلى المشروع الغربى عن العلم للعلم والتقنية للتقنية.. إن التربية السلبية وهى تميز الفكر الشرقى ينبغى بالضرورة أن تتدخل لتحديد هدف تقنيات مداولاتنا الغربية ونضدها باتجاه كل عالمى. وعلينا أن نتعلم الشيء الكثير من الحكمة الشرقية. وبالمقابل فقد يتفق لسكان افريقيا وأسيا وأمريكا اللاتينية الإفادة من دمج بعض الجوانب الإيجابية من علمنا وتقنياتنا. وليس بمحال إطلاقا حدوث مبادلة نتيج حوارا بين الحضارات. ولكن الحوار يفترض أن يكون كل طرف مقتنعا بأن ثمة شيئا يتعلمه من الطرف الآخر^(١٦)."

[٣]

♦ الرد العربى على مسألة الحوار الحضارى:

لقد اتضح لنا فيما سبق أن ما يسعى إليه جارودى فى كتابه الذى بين أيدينا وفى معظم كتاباته الأخرى وخاصة المتأخرة منها^(١)، إنما هو إقامة الحوار بين الحضارات لخير الإنسانية كلها، وهذا موقف فكرى عظيم نقدره له. وقد رد عليه الفكر العربى فى حينه، إذ كتب المفكر التونسى الأستاذ محمد مزالى فى مجلة "الفكر"

التونسية بعد صدور "حوار الحضارات" لجارودي بشهرين فقط، كتب مقالا بعنوان "تحو مستقبل أفضل أساسه حوار الحضارات" يشيد فيه بموقف صاحبه واعتبره "الموقف السليم الذى يمليه العقل المتبصر وتقتضيه الأخلاق السامية وتفرضه متطلبات السلم العادلة الدائمة"^(٢) وقد أوضح الأستاذ مزالى أن تلك الدعوة إلى الحوار البناء بين الحضارات إنما هى دعوة طالما دعونا إليها على أن يكون ذلك الحوار وهذا التعاون الثقافى نزيها "يقوم على التقدير المتبادل مبرءا من عقد الاستعلاء والغرور وإرادة الهيمنة والاستغلال، محاط بأكثر قدر من الانتباه والتحرى للحفاظ على خصوصية كل ثقافة وإبراز طرافتها وصياغة عبقريتها"^(٣).

إذن لقد كان أول رد عربى - إسلامى على تلك الدعوة إلى الحوار بين الحضارات يمثل الرد المتوقع منهم بحسب إرثهم الحضارى الطويل القادر على ادراك أن النماذج الفكرية لا بد أن تتلاقح لخير البشرية جميعا، وأن حظوظ الأفراد والشعوب من الإبداع متساوية دائما، وأن ليس هناك ما يمكن أن يسمى بالشعب المعجزة أوبالفرد المعجزة؛ إذ أن للشعوب إرادة فكرية جمعية تبدها وتميها وتتفاعل بها مع الشعوب الأخرى، كما أنه لم يولد بعد الفرد المبدع إبداعا مطلقا؛ فالإبداع ليس خلقا للأفكار أو للنظريات العلمية والفكرية من عدم وإنما هو نتيجة حتمية للتأثر ببيئة فكرية ناضجة

تأثرت بتراث سابق عليها أو معاصر لها. هكذا يعلمنا النظر إلى التاريخ العالمى للحضارات البشرية.

إننا يا سيد جارودى نؤمن بكل ذلك ولا أدل على إيماننا العميق به من أننا كأمة عربية - إسلامية قد فتحنا لحضارتكم ونواتجها العلمية والتقنية - بإرادتنا واختيارنا - الأبواب على مصراعها، فمنذ بدأ أجدادنا يسمعون عن تقدمكم الحضارى الحديث، بدأوا منذ فجر نهضتنا الحديثة يرسلون إليكم البعثات العلمية، ويطلبون منكم التعاون فى شتى المجالات. •

♦ الرد الاستعمارى على طلب "الحوار الحضارى":

لكن ماذا كان رد الغرب؟!، لقد كان ردا استعماريا غازيا ناهبا مشتتا شمل الدول والامارات العربية الاسلامية، وتعلم يا سيد جارودى كيف بدأ ذلك العصر الإستعمارى من دول أوروبا الغربية لدول الشرق وماذا كانت أهدافه! وكم كانت شجاعتك الفكرية عظيمة فى هذا الكتاب حينما كشفت بنفسك عما كان مخفيا على باحثكم ومفكركم، وكذلك على باحثينا ومفكرينا من حسنى الظن والمتغربين، عما فعله الغربيون فى الحركات الاستعمارية بالدول المستعمرة.

وسأسوق لهم من كلامك بعض فقرات تصف ذلك؛ فلقد نشر الغربيون إبان استعمارهم ظاهرة الرق سواء فى أفريقيا أو فى

أمريكا، وبخصوص أفريقيا قبل استعمارها "لم يكن الرق أبدا طرازا من طراز الإنتاج فيها قبل وصول الأوروبيين إليها.. ولم يكن ثمة قبل الإلتقاء بأوروبا إلفارق طفيف فى مستوى الثقافة، وكان التفجير الأساسى نتيجة تفجير الرأسمالية الإنتاج تفجيرا كميًا^(٤)". وبالنسبة لأمريكا "كان أول انفصام كبير قد حدث بعد إبادة هنود أمريكا، وقد شرع غزاة كبار طغاة بهدم حضارات عظيمة عريقة وذبح الشعوب كما فعل هرمان كورتز بالازتك فى المكسيك، وبدرو دى ازفيدو بالمايا، وبيزار فى الأند^(٥)".

ويحكى جارودى القصص الدامية للإستعمار الأوروبى وكيفية استقدام الأرقاء من افريقيا دون مراعاة لأى ظروف آدمية، وتلك الإبادة الجماعية التى تعرض لها منذئذ الأفارقة سواء فى طريقهم للأرض الجديدة أو فى تلك الأرض نفسها لمدة ثلاثة قرون كاملة.

وقد لخص ماسى كل ذلك بقوله "إن الرأسمالية الأوربية وقد أصبحت مركز منظومة اقتصادية عالمية، هى التى أعادت الرق إلى الوجود، وفرضته خلال ثلاثة قرون من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر. وعلى هذا النحو ولدت الثروات العظمى للمشاريع الرأسمالية فى الوحل وفى الدم^(٦)"، وحتى حينما نادى الأوربيون من المفكرين الأحرار بإلغاء الرق، لم يبلغ الرق لقناعة كاملة من الأوربيين بذلك - كما يتغنى هم ومن يتابعونهم من

المفكرين والمؤرخين العرب من حسنى النية - بل إنه ألغى لأسباب اقتصادية بحتة.

وقد كشف جارودى عن الأسباب الحقيقية لإلغاء الرق بقوله "إن الرق لم يُلغ لأسباب أخلاقية فى الأزمنة الحديثة.. لقد ألغى لأسباب اقتصادية.. ففى الولايات المتحدة كان من الممكن عند الحاجة الاكتفاء بالقسر المباشر لتنفيذ الأعمال اليدوية لأن العبيد كانوا يلحقون الضرر بالأدوات وينظمون عمليات التخريب"^(٧). أما فى أوروبا فقد ألغى الرق "حينما ظهرت الثورة الصناعية وتناقص الربح الحاصل عن الرق شيئاً بعد شئ. ونجم عن شروط العمل التقية الجديدة ضرورة البحث عن حوافز أخرى غير الإكراه الجسدى وذلك لربط العامل بخوف اقتصادى من فقدان خبزه وخبز أسرته"^(٨).

♦ هدف الغرب : صيد البشر ونهب الثروات:

والغريب فى ثنايا كل ذلك وبعده أن يعلن الأوروبيون بتبجح واضح إبان عصر استعمارهم لبلدان العالم الأخرى إنهم إنما يحاولون إنهاء الرق فى العالم، وأنهم إنما يحاولون تمدين الافريقيين.. إلى آخر هذه الدعاوى المضللة!!

لقد كان الاستعمار الأوروبى يستهدف دائماً الاستيلاء على ثروات الدول الأخرى وتسخير كل ما فيها لخدمته وخدمة اقتصاده، وفى أحسن الأحوال كان الاستعمار يتم بحسب قول أحد ممثلى الدول

المستعمرة فى برلمان بلاده آنذاك "لخلق أسواق جديدة"^(٩) لتصريف الصناعات الأوربية بأعلى الأسعار بعد أن سلبت موادها الخام من تلك البلاد المستعمرة!. وباليت الأمر فى الغرب الاستعمارى قد توقف عند حد النهب الاقتصادى وإفقار هذه البلاد المستعمرة!، فالأمر المخزى حقا هو المذابح التى ارتكبوها بحق المدنيين الأبرياء فى سبيل ذلك. ١

ولقد روى لنا جارودى بعض شهادات القواد العسكريين الميدانيين حول تلك المذابح التى يحكون عنها بفخر فى ذلك الوقت!. ويكفى الإشارة إلى ما رواه أحدهم ويدعى كونت دى هاريسون فى كتاب له بعنوان "صيد البشر"^(١٠) عن حملات الإبادة التى كانوا يقومون بها ضد السكان المساكين فى الجزائر "بيرودة وعدم رحمة" وكيف كانوا "يبيعون آذانهم المقطوعة ويفترسون نساءهم" وكيف كانوا يحرقون قبائل بأكملها، وغير ذلك من فظائع يكاد لا يصدقها العقل^(١١).

ولنتوقف عن الخوض فى تفاصيل تلك الفظائع التى ارتكبتها المستعمرون الأوربيون لأننا نعلمها جيدا ولا تزال آثارها باقية فى أرض المغرب العربى والمشرق العربى على السواء. وإذا كان الوعى الأوربى ممثلا فى جارودى قد بدأ يزيح عنها الستار ستار النسيان ويذكر قومه بها، فنحن لم ننساها وإن كنا نحاول أن

نتناساها. إن ما حدث في الماضي القريب قد تناسيناه رغم ارثه الطويل من آلام في النفس لا تمحى، ومن أثار مدمرة على الإنسان العربى والشرقى لم يمحها الزمن بعد!.

♦ استحالة الحوار الحضارى مع الغرب وأسباب ذلك :

ولعل السؤال الآن بعد كل هذا هو: أيمكن أن يكون هناك حوار حقيقى بيننا وبين ما يسمى خطأ الآن بالحضارة الغربية المعاصرة؟.

إن الإجابة على هذا السؤال صعبة وخطيرة، إذ لا بد من أن نتساءل: على أى مستوى يكون هذا الحوار؟ هل على مستوى الفكر الحضارى النظرى أم على مستوى الواقع العملى المصلحى النفعى المرتبط بالمنافع المادية المتبادلة؟!

وإذا اعتبرنا أن المستويين متداخلان، وهما هكذا فعلا في عصر اختلطت فيه المفاهيم وامتزج النظرى بالعملى امتزاجا لا انفصام فيه، فليس أصعب على نفس الإنسان الشرقى من أن يجيب - وهو يملك إرثا حضاريا عظيما وغنيا وهائلا - وهو فى أضعف حالاته أمام قوة الغرب وسطوته وعتفوان مصلحه وهيمته!!.

إن قناعتى الشخصية أن هذا الحوار لم يحن وقته بعد، بل أكاد أقول إنه مستحيل فى ضوء المعطيات التى يقذفها الغرب فى وجهنا

كل يوم على الصعيد الواقعي العملي، وفي ضوء المعتقدات التي رسخت في ذهن المفكر الغربي، مستحيل لأسباب كثيرة في اعتقادي وأهم هذه الأسباب ما يلي:

أولاً: أن قيام الحوار بين الحضارات يفترض سلفاً أن يكون لدى الجميع قناعة تامة بما أسميه "التكافؤ الحضاري" أي أن كل الحضارات الإنسانية المعاصرة سواء، وأن كل حضارة لديها بالفعل ما تعطيه للحضارات الأخرى من قيم تمتلكها وعلوم وفنون وآداب تبدها، وأنه إذا امتاز شعب حضارة معينة بميزة نتيجة لظروف بيئية أو تاريخية معينة فإن شعوب الحضارات الأخرى لديها مميزات أخرى نتيجة لظروف بيئية وتاريخية مختلفة، كما أن الثروات الطبيعية التي يتمتع بها أبناء الحضارات والشعوب المختلفة إنما يمكن أن تصب جميعها في خدمة البشرية كلها إذا ما خلصت النوايا وسادت المساواة الحقيقية والعدالة الحقّة في نظرة الجميع للجميع.

وفي ضوء ذلك أتساءل: هل يمكن أن تتوافر هذه القناعة لدى أبناء الحضارة الغربية (أو ما أسميه بالمدينة الغربية) المعاصرة؟!.

إن الإجابة على هذا التساؤل هي بالقطع بالنفي؛ فالناظر إلى تاريخ الحضارة الغربية في أي عصر من عصورها يتأكد من أنها كانت دائماً ولا زالت تنظر إلى أبناء الحضارات الأخرى نظرة استعلاء واحتقار؛ فمنذ الحضارة اليونانية ونظرة الإنسان الغربي

إنسان الشرق هي هي لم تتغير: إنه ذلك "البربرى الذى لا يصلح إلا للرق والعبودية" وأنه "غير قادر على التحدى الحضارى" وأنه "لا يقدر على إنتاج الفكر الفلسفى أو الإبداع العلمى" وأنه بشكل عام لا يصلح إلا أداة تسييرها إرادة الغرب لتحقيق مصالحه التى كانت ولا زالت - فى نظر الغربيين - هي دائما المصلحة العليا للإنسانية؛ فالإنسان الغربى هو الوحيد الذى يعرف أين المصلحة العليا للإنسانية، وهو الوحيد القادر على القيادة والريادة والإبداع.. الخ!!

إن مهادنة الإنسان الغربى للإنسان الشرقى فى بعض فترات التاريخ لم تكن إلا للاستفادة من بعض انتصاراته الفكرية ومكتشفاته العلمية ونظمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتطورة. إنها كانت دائما فى فترات التعلم والتلقى من حضارات الشرق سواء فى الزمن القديم أيام أن تعلموا الدرس الحضارى الأول على يد أبناء الحضارات الشرقية القديمة فى العصر اليونانى، أو فى عصر النهضة حينما تلقوا الدرس الحضارى الثانى على يد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية.

وأيا ما كان أمر المستقبل الذى لا أشك فى أنه سيجمل دروسا حضارية أخرى سيتعلمها الغربيون من الشرق، فإن نظرة الإنسان الغربى لم تتغير؛ فهو لم يعترف بتلك الدروس الحضارية التى تلقاها عن الآخرين على أساس مما أسميته الآن "التكافؤ الحضارى"، بل كان دائما يتناسى ذلك ويعيد النظر إلى ذاته بصورة متضخمة

مركزية متميزة.. إن الإنسان الغربي مريض بعبادة الذات، مريض بالنظر إلى نفسه دائماً على أنه الإنسان "النموذج" وأنه "الفرد المتميز"، وإنسان هذه نظرتة إلى ذاته حتى وهو فى أشد لحظات الضعف والتخلف الحضارى لا يمكنه أبداً أن يحسن الحوار مع غيره من منطلق "التكافؤ" خاصة وهو يعيش هذه الأيام أزهى انتصاراته، وينتشى كل يوم بمدى هيمنته وقوة سيطرته على الآخرين.

ثانياً : إنه من خلال كل ما عرضنا له من شهادات جارودى نفسه، ثبت له ولنا بالدليل القاطع أن الغرب لم يعد يمتلك الآن حضارة، بل هى مدينة بلهاء تقودها قوى الدمار والفتك والعنف لاقوى التفكير العقلى والمنطقى. إن كل الشواهد التى تأتينا من الغرب - باستثناء قلة قليلة من المفكرين المنصفين الواعين بأزمة حضارتهم - ومنذ عصر التوسع الاستعمارى الأوروبى لا يلوح منها أى بادرة لإمكانية مثل هذا الحوار الحضارى!

إن الغربيين تركوا استعمار الأراضى، نعم! لكنهم لا يزالون فى غيهم الاستعمارى ماضون بوسائل وصور شتى لا حصر لها منها الإقتصادى ومنها الثقافى ومنها الاجتماعى والسياسى، ومنها الثقافى والاعلامى، وكلها وسائل تخريبية لا تكتفى بتخريب اقتصاديات ومدنيت الدول الأخرى، بل تسعى لإفقارها وإفنائها. والحقيقة أنه لا يمنعهم من استكمال إبادة الشعوب الأخرى، إلا أنهم

وجدوا أن من مصلحتهم الإبقاء على تلك الشعوب البائسة (التي هي نحن) حتى يظل لديها - أى لدى أمة الغرب - من تستخدمهم لتحقيق مصالحها، حتى يظل لديها من تشفق عليهم ويظل لديها الإحساس بالتفوق المادى والتقى، والشعور بالتفوق ضرورة عند الإنسان الغربى، إذ أن ذلك كما أسلفنا يمثل عقدة قديمة عقدة "التفوق والتميز".

ثالثاً : إن هذا الحوار الحضارى مستحيل لأنه فى كل الأوقات السابقة والتى لاحت فيها فرص الحوار كان الغربيون هم من ضيعوا هذه الفرص وإذا ما قيل لنا: دعكم من هذه الفرص المفقودة السابقة، ولنبدأ من جديد!

فمن أين يبدأ للحوار؟ هل من تأييد الغرب المطلق لأشر أجناس الأرض الذين تجمعوا فيما يسمى بإسرائيل، وكل أهدافهم - كما تعلمون يا سيد جارودى - تخريبية توسعية!! لقد أراد الغرب التخلص من شرورهم والحاحهم ولم يجد لهم مأوى إلا زرعهم فى أرض عربية اسلامية!!

إن "الشر الأبيض" يا سيد جارودى لا يزال يمرح فى أرض العرب والمسلمين، وإن كنت ترى على السطح حواراً بين العرب وإسرائيل، فإن مظلة هذا الحوار من أمريكا وروسيا وأوروبا إنما تظل فقط الجانب الإسرائيلى، ولا ينوى هؤلاء تحت أى ظروف

الضغط على صنيعتهم "اسرائيل"، لا لشيء إلا لأنها لا تزال تحقق مصالحهم وأهدافهم المنظورة وغير المنظورة في قلب العالم العربي والإسلامي.

إن "الشر الأبيض" يا سيد جارودي لا يزال ومنذ شهور عديدة يسفك دم المسلمين في يوغسلافيا السابقة لا لشيء إلا لأنهم قالوا "إنا مسلمون"! وها هم يُغتصب نساؤهم ويذبحون كالحوانات ويشرد من بقى منهم تحت سمع وبصر قادة "الشر الأبيض"، ولم تتحرك بعد الجيوش كما تحركت من قبل في حرب الخليج لمصالح معلومة لاتخفى على أحد!!

ها نحن نرى أن كل مقومات "امبراطورية الشر الأبيض" لاتزال قائمة وشاهرة كل أسلحتها الخفية والعننية ضد شعوب العالم الأخرى، تأمر هذا وتنهى ذلك!! تنتهك حرمة هذا وتقف إلى جوار ذلك!! إنها تعيث في الأرض فسادا ولا أحد منكم يصرخ أو حتى يكتب طالبا وقف هذا الشر الغربي الزاحف في عالم آخر القرن العشرين. وحتى إن كتبتم، فهل يمكن لتلك الآلة العسكرية المخابراتية البراجماتية المادية الرهيبة والتي تتحكم في العالم وفق معاييرها العنصرية الأثمة الشريرة، هل كانت تلك الآلة التي تذكرني دائما بلفياثان هوبز^(١٢) ستستمع إلى ما تقولون أو تلتفت لما تكتبون؟!

إن قوة "الشر الأبيض" في عالم اليوم قد تحركت منذ زمن وهي لا تزال إلى اليوم تتحرك بفعل شيطان ألى ميكانيكى لا يمكن أن يوقفه فكر أو حوار. إن وقف هذا "الشر الأبيض" لم يعد يصلح له الحوار لأنه لا يقبل إلا الحوار مع نفسه، والهدف واضح لديه! إنه إذلال الآخرين ومحو حضاراتهم وكياناتهم والاستيلاء على ثرواتهم، وإفقادهم الثقة فى أنفسهم منذ الآن وإلى الأبد!!

ان وقف هذا "الشر الأبيض" لم يعد له من سبيل إلا إعلان العصيان المدنى العالمى عليه، فهل تفعلون؟!.

أما نحن أبناء الشرق، فليس أمامنا إلا العودة إلى الذات واستلهاها بعد الوعى بأهداف "امبراطورية الشر الأبيض"، العودة إلى الاستمساك بكل قيمنا الأصيلة وبيدنا الحنيف وبكل ما يدعو إليه من قوة وترابط وتراحم وحب وتعاون واعمال فكر وإبداع، العودة إلى الامساك بعناصر حضارتنا الإيجابية التى افتقدناها فى غمرة التباهى بالفرنجة والتغريب! ولعل العودة إلى الذات تكون بداية وأداة للتغيير نحو الأفضل والأقوم والأقوى بعون من الله وبمساندة إرادته التى ليس فوقها إرادة.

الهوامش

هوامش [١]

(١) روجه غارودي: حوار الحضارات، الترجمة العربية للدكتور عادل العوا، نشرة منشورات عويدات، بيروت وباريس، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م، ص ١٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٧.

(٣) نفسه، ص ٤٥.

(٤) نفسه، ص ٤٧.

(٥) نفسه، ص ٤٨.

(٦) نفسه، ص ١٠٣.

(٧) نفسه، ص ٩٧.

(٨) انظر: نفس المصدر، ص ١٠٣.

(٩) نفسه.

(١٠) نفسه، ص ١٠٤، ١٠٥.

(١١) نفسه، ص ١٠٦، ١٠٧.

ويمكن للاستزادة في هذا الصدد الرجوع إلى: كتابنا: فلاسفة أيقظوا العالم، الفصل العاشر عن ابن خلدون، والفصل الحادي عشر عن مكيا فيللي، وهو منشور بدار الكتاب الجامعي بالعين بدولة الإمارات العربية المتحدة، ط ٢، ١٩٩٠م.

(١٢) جارودي: نفس المصدر السابق، ص ١١١.

(١٣) نفسه.

(١٤) انظر: نفس المصدر: ص ١١٢-١١٣.

هوامش [٢]

(١) روجه غارودي: حوار الحضارات، الترجمة العربية للدكتور عادل العوا، منشورات عويدات ببيروت، ١٩٨٦م، ص ٤٢.

(٢) هذه الفقرات من نفس المصدر: ص ٤٢، ٤٣.

(٣) نفسه، ص ٤٤.

(٤) انظر كتابنا: فلاسفة أيقظوا العالم، نشر دار الكتاب الجامعي بالعين، دولة الإمارات العربية المتحدة، الفصل الخامس عشر، ص ٢٢٣ وما بعدها.

(٥) انظر: نفس المصدر السابق.

(٦) جارودي: المصدر السابق، ص ٩٣.

(٧) نفسه.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن فلاسفة غربيين عديدين من أمثال اشبنجلر وشفيتسر وتوينبي قد نبهوا إلى تلك الحقائق وأدركوا انهيار الحضارة الغربية إن هي لم تسارع وتصحح مسارها بالاستفادة من الحضارات الأخرى خاصة الحضارات التي تقوم على أساس ديني وأخلاقي.

راجع ما كتبناه عن آراء اشبنجلر وتوينبي في كتابنا: فلاسفة أيقظوا العالم، في الفصلين الثامن عشر والتاسع عشر.

كما يمكن الرجوع إلى كتابنا: فلسفة التاريخ معناها ومذاهبها للاستزادة من آرائهما وآراء اشفيتسر، نشر وكالة زووم برس للإعلام، القاهرة، ١٩٩٢م.

والجدير بالذكر أن كتاب اشفيتسر الرئيسي في هذا الموضوع وهو بعنوان "فلسفة الحضارة" قد نقله د. عبد الرحمن بدوي إلى اللغة العربية، نشر وكالة المطبوعات بالكويت.

(٨) جارودي: نفس المصدر، ص ٩٧.

(٩) نفسه، ص ٩٨.

(١٠) نفسه.

(١١) نفسه، ص ٩٩.

(١٢) نفسه، ص ١٠١.

(١٣) نفسه.

(١٤) نفسه، ص ١٠٨.

(١٥) هذا القول للمهاتما غاندى منقول عن: جارودى: نفس المصدر

السابق، ص ١٢٣.

(١٦) نفس المصدر، ص ١٢٥.

هوامش [٣]

(١) انظر على سبيل المثال كتابه الهام: ما يعدُّ به الإسلام، ترجمة

إلى العربية قصى أتاسى وميشيل واكيم، صدر عن درا الوثبة،

سوريا — دمشق، ط (٢) ١٩٨٣ م.

(٢) محمد مزالى: نحو مستقبل أفضل أساسه "حوار الحضارات"،

منشورة كملحق فى ختام نفس الترجمة العربية لكتاب جارودى:

حوار الحضارات، ص ٢٨٣.

(٣) محمد مزالي: نفس المرجع، ص ٢٨٣.

(٤) جارودي: حوار الحضارات: ص ٥١.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه، ص ٥٦.

(٧) نفسه، ص ٦٠.

(٨) نفسه، ص ٦١.

(٩) نفسه، ص ٦٤.

(١٠) يذكرني عنوان هذا الكتاب وما يرويه جارودي بتعليق لا بد منه عن أن النظرة الغربية لشعوب الأمم الأخرى لم تتغير منذ فجر الحضارة الغربية؛ فقد أباح كبير فلاسفتها أرسطو الحرب في حالة واحدة فقط هي حالة نقص الأرقاء في الدولة. إذ أنه كان يعتبر أن الرقيق عنصر أساسي من عناصر الأسرة، ولما كان الأرقاء بالضرورة من الأجانب غير المواطنين (بالتعبير الأثيني اليوناني القديم). فقد أباح أرسطو أن تنش الدولة اليونانية الحرب على جيرانها من البرابرة (أي الأجانب) بغرض "اصطياد الأرقاء" بنص تعبير أرسطو. [انظر: الترجمة العربية التي قام بها أحمد لطفى السيد لكتاب: السياسة لأرسطو، الفصل الخاص بالرق وعناصر الأسرة، نشر الكتاب بالهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

(١١) انظر: بعض تفاصيل هذه الفظائع في نفس المصدر لجارودي، ص ٧١ وما بعدها.

(١٢) الليفيانثان عند الفيلسوف الانجليزي توماس هوبز يعني الوحش الاسطوري الذي يمثل رمز السطوة والقوة ويحكم بمقتضى أنانيته المفرطة، إنه رمز للحاكم القوي الذي يقهر إرادة كل من تسول له نفسه أن يخالفه في الرأي.

[انظر: Hobbes(T.): Leviathan, Penguin Books, U. S. [A., 1977.